

العصية المهدية

للاستاذ عبد الحميد يونس

—•••••—

في هذا الوقت الذي تلتفي فيه الحدود الجغرافية نفسها على عتوها وجبروتها ، وتتقارب الجماعات البشرية التي طال اضطراؤها حتى أصبح التاريخ الإنساني كله عبارة عن سرد متصل لمشاهد حروبها وأحوال أيامها ؛ بل وفي هذا الوقت الذي تغلب فيه الدعوة إلى العدالة الاجتماعية سائر الدعوات فتعمل على محو الفروق بين الطبقات ، أو على التقريب فيما بينها على الأقل ؛ أقول في هذا الوقت تقوى في مصر عصية خطيرة تخلق طبقات جديدة وتشر الإحن والأحقاد في نفوس الأفراد والجماعات

ومن عجب أن هذه العصية تفرق أولاً وقبل كل شيء بين المتعلمين وغير المتعلمين على الرغم من أن المصادفة وحدها جمات المتعلم متمكناً والجاهل جاهلاً ، وكان الأحجب أن يتقارب الإثنين ويأخذ الفاقد من الواجد ، ولا أقول يعطى الواجد الفاقد

وفرت هذه العصية كذلك بين المتعلمين أنفسهم ، فجعلتهم طبقات ، واخترعت لهذه التفرقة مراحل وأقساماً ، فهؤلاء هم أهل الطبقة الأولى ، وهؤلاء أهل الطبقة الثانية ، وأولئك أهل الطبقة الثالثة ... وهكذا

ولم أكن لأملك أن أكتب بأسلوب الناقد الجاد ... إن مجرد الحديث في لغة الجد والنقد عن مثل هذه « الساخر » لهو احتقار للشعر والأدب والنقد ، واحتقار للصحيفة التي أكتب فيها ، وللناس الذين أكتب لهم .

هذه « عملة » لا يجوز أن تمر . فهي استهتار يتجاوز حدود الجراءة ، ولا بد أن يوضع حد لهذه « الساخر » بأية طريقة وإذا كان القانون لا يملك — مع الأسف — أن يعاقب على مثل هذا الاستهتار فيجب أن يرد الناس عن أنفسهم هذا الاحتقار . فاجبرؤ إنسان على نشر مثل هذا الكلام بمثل هذا الإدعاء إلا أن يحتقر نفسه أو يحتقر القراء .

سليم قطب

ولم تكثف هذه العصية الويلة بذلك ، بل راحت تفرق الطبقة الواحدة شيماً وأحزاباً لا تتعاون فيما بينها ، لأن الأحقاد والإحن هي أساس وجودها والباعث على بقائها واطراد نموها . ترى ما هذه العصية الحقاء التي صورتها بهذه الصورة المنكرة ؟ هذه العصية هي التي سميتها « العصية المهدية » ، ولطالما نهت إليها وحذرت منها ، فلم يأبه للتنبيه والتحذير أحد ، لأن السكل متهم بها ، منتفع من وجودها ، وعامل على إذكائها .

هذه « العصية المهدية » هي السرفيا تسمعه كل يوم من أن طائفة بعينها ، أو قسماً بعينه يريد أن يسوى بينه وبين طائفة أخرى وقسم آخر في بعض الزايات والحقوق ؛ أو أن أبناء معهد بعينه ينكرون على أبناء معهد آخر ما يضطلعون به من جهد وما يقومون به من عمل ، وكأننا العلم بضاعة يحتكرها أولئك دون هؤلاء ، والقوامون على مرافق هذه الأمة يساعدون أحياناً ، عامدين أو غير عامدين ، على تقوية هذه العصية بتفضيل طائفة من المتعلمين على غيرها ، أو معهد من معاهد التعليم على غيره ، وفيهم من تأخذ عنجهية هذه العصية إلى أبعد مدى ، فيحتكر العلم أو التعليم لأبناء طائفته أو معهده

ولعل من المضحكات أو المبكيات ما روى من أن مصلحة من مصالح الحكومة أرادت أن تتحرى العدالة في اختيار موظفيها لتبرأ من المحسوبة النفشية في الدواوين وغير الدواوين ، فمقدت امتحان مسابقة تختبر به كفايات المتقدمين ومقدار صلاحيتهم للأعمال التي ستناط بهم وتوكل إليهم ، ولم يكن العمل يتطلب تخصصاً ضيقاً ، وتقدم إلى هذا الامتحان جمع من معاهد شتى ، وانقضت أيام وأعلنت النتيجة ، فإذا الأول من معهد ، والثاني والثالث والرابع من معهد آخر ، فاختار مدير المصلحة الثلاثة دون الأول ، لأنهم من المعهد الذي تخرج فيه ، فهم لذلك دون غيره أسلح للعمل معه !

ولا تظن أن هذا المثال الفريد في باب ، فكثير مثله يجري كل يوم في كل مصلحة وفي كل عمل ، يختار المتعلم من هذا المعهد دون سواه ، لأن رؤسائه منه ، أو لأنه ينتمي إلى طائفة قد أصبحت طبقة يجب أن يعمل حسابها ولا يستغنى عنها ،

والتخصص إلى أن يفرق طلابه على الأقسام ونشأت «عصبيات قسمية» ، إذا صح هذا التعبير ، ورأينا هؤلاء الطلاب إذا تخرجوا ، ألفوا ما يشبه النقابات تضم أبناء قسمهم ، بل ورأينا أنه إذا اتسم الحظ لواحد منهم وجعله من أصحاب الحل والمقد في ناحية من النواحي ، ضاقت نفسه بأبناء غير قسمه ، وإن كانوا من معهده ، ورأينا أكثر من ذلك أن رجال العلم والتعليم في هذا المعهد أو ذاك ، قد يضطرون قانون التعاون إلى أن يجتمع بعضهم وهم من أقسام شتى للقيام بعمل علمي أو اختبار طالبات أو طلاب فينتصر كل إلى قسمه وأبنائه ، وإن كان ذلك تحيف على العدالة الواجبة في كل شيء وفي العلم ومماهده بنوع خاص

نعم ، إن هذه الهيئات والجماعات قد تكون لها وظيفة نقابية فتدافع عن مصالح أبناء المهنة الواحدة ، وتحافظ لهم على حقوقهم ، وتستغل الفرد لمصلحة الجماعة كلها ، وتجنّد الجماعة لمصلحة الفرد من أبنائها ؛ ولكن مارأيك في أن المهنة الواحدة تنوزعها نقابات مختلفة ، وتتنازعها اتحادات شتى ، تسمى كل واحدة منها باسم «معهد» ، أو حتى قسم من معهد ، فأنت تجد اتحاد خريجي الجامعة ، وتجد اتحاد خريجي كلية الآداب ، بل واتحاد خريجي قسم اللغة الإنجليزية ، بل إن جماعة المعهد الواحد تنقسم بدورها إلى شعب ، من ذلك أن لخريجي دار العلوم أكثر من ناد واحد في مدينة القاهرة وحدها

وهذه العصبية تؤرق الحكام وتضنيهم ، وقد أزججت الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأزججت وزير المعارف ، وأزججت وزير المالية ووزير الداخلية وسائر الوزراء ، واضطرت أولى الأمر إلى إقفال هذا المعهد أو ذاك أمداً ليس بالقليل ، والتلويح بالعود لهؤلاء ، والنذر لأولئك ، فيرضى قوم ويفضرب آخرون ، وتبقى العصبية المعهدية على حالها تنخر في عظام هذا المجتمع الناشئ المتطلع وتفسد ما بين المتعلمين ، وكان الأحجب بهم وبرؤسائهم أن يجتمعوا على مكافحة الفقر والجهل والمرض ، وهم الذين أدبتهم الأمة للاضطلاع بهذه المهمة ، لا لأن يحارب بعضهم بعضاً

والملاج الوحيد لهذه العصبية النكودة هو أن نأخذ اللهاء

ولسنا نبالغ في تجسيم هذه العصبية المعهدية وبيان أثرها مبالغة التعممين المعهدين في امتداح أنفسهم وطوائفهم ومماهدهم ، والحط من قدر الآخرين وطوائفهم ومماهدهم ، وذكر العنت الذي يقع عليهم دون سائر الناس

الم يبلغك الخلاف الذي قام بين خريجي المعلمين العليا ومعهد التربية ، والاتصاف لهؤلاء مرة ، ولأولئك أخرى ، لأن مقاليد الأمور كانت في يد هؤلاء مرة وأولئك مرة أخرى ؟ !

الم يبلغك الخلاف الذي قام قبل ذلك بين هؤلاء المعلمين وبين الجامعيين والذي لا زال له آثاره حتى اليوم ؟

الم يبلغك الخلاف الذي قام بين بعض الجامعيين وأبناء دار العلوم ، وما له من أثر وبل إلى يومنا هذا ؟ !

الم تقرا عن هذه الحرب الشواء بين أبناء الأزهر وأبناء دار العلوم ، والتي اتخذت لنفسها صورا وأشكالا لم يكن الشعب المصري يألفها من قبل ؟

اختر لنفسك أي مدرسة من مدارس هذا القطر من الأسكندرية إلى أسوان للبنين كانت أو للبنات ، واختبر حالة المعلمين والمعلمات ، فسيأخذك الدهش من كل جانب لأنك ترى هؤلاء الذين يعيشون للعلم وللتعليم أحزاباً متنافرة ، لا شيء إلا لأن كل فريق من معهد ، وقد أدت سياسة الارتجال وأنصاف الحلول والإصلاح المؤقت واسترضاء الطوائف إلى أن يتخرج المعلمون في المدرسة الواحدة من أكثر من خمس معاهد لا يدعوا التخصص وحده إلى هذا التفريق فيما بينها ، فأنت واجد مدرسي اللغة العربية التخرجين في الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ، وأنت واجد في المدرسة نفسها أبناء معهد التربية العالي والابتدائي معاً ، إلى جانب خريجي المعلمين العليا ، وهم جميعاً يدرسون مجموعة واحدة من المواد . وكذلك الحال في مدارس البنات ، فخرجات السنية والمناهة الإضافية إلى جانب الجامعيات وخريجات معهد التربية الابتدائي ، وهكذا ... ولكل فريق من هؤلاء رؤساء يذكرون في عصبية ويساعدونه في وجوده وارتفاعه

وأفرخت هذه العصبية عصبية أخرى من نوعها وإن كانت أصغر وأقل شأنًا ، فإن المعهد الواحد قد أزمه قانون تقسيم العمل